

## المستشرقون والمستغربون والدعوة إلى العامية

د. أحمد الفاضل

جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية - استانبول

العربية حبل - بعد الدين الحق - يعتصم به العرب والمسلمون في كل مكان وزمان، وهو حبل متين لا يمكن أن تنقطع عراه ما دام هذا القرآن العظيم يُتلى في المشارق والمغارب. هذه حقيقة صار يدركها كلُّ عاقل مفكر، من أجل هذا أراد المستشرقون وأذئابهم القضاء على هذه اللغة وإحلال العامية محلها لأن القضاء عليها يعني تمزيق هذه الأمة الواحدة وجعلها قبائل وشعوباً لا ترتبط فيما بينها بلحمة أو وشيجة. وفي هذا المقال تعرّضت لأشهر من دعا إلى العامية من المستشرقين والمستغربين، ثم بيّنت أنّ تلك الدعوة لم تلق نجاحاً ولن تلقاه بإذن الله تعالى.

### المستشرقون والدعوة إلى العامية:

أول من حثَّ على التحوّل عن الكتابة باللغة العربية من المستشرقين المستشرق الألماني الدكتور ولهم سبيتا، الذي نزل مصر، وعاش في أحيائها، ودرس العامية، ووجد أنها تختلف من بلد إلى بلد، ومن حي إلى حي.

وقد رأى هو ومن يهدف إلى تحطيم حركة الإحياء من أهل الاستعمار الأوروبي أنّ الأمر يوشك أن يخرج إلى ما لا يحمدون عقباه، من سيادة اللغة العربية ونهضتها مرةً أخرى. ففي سنة (١٨٨٠م) ألف كتاباً سمّاه (قواعد اللغة العامية في مصر) وقد أورد في هذا الكتاب نبذة عن فتح العرب لمصر سنة ١٩هـ، وانتشار ثقافتهم بين

أهلها، وقضائها على اللغة القبطية، لغة البلاد الأصلية حسبما يرى، وقد كشف في مقدمة كتابه عن الغرض الخبيث الذي يرمي إليه فقال: «وأخيرًا سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طوال مدّة جمع هذا الكتاب، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها، ويمس أمرًا هو بالنسبة لها وإلى شعبها يعرف إلى أيّ حدّ كبير تتأثر كلّ نواحي النشاط فيها، بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة»<sup>١</sup>.

وقد أيد المستشرق الألماني سييتا اللورد فرين في تقرير وضعه سنة (١٨٨٢م) دعا فيه إلى هجر العربية الفصحى وإحلال العامية المصرية محلّها، وقال في تقريره: «إنّ أمل التقدّم ضعيف في مصر طالما أنّ العامّة تتكلّم اللغة الفصيحة العربية - لغة القرآن - كما هي في الوقت الحاضر»<sup>٢</sup>.

بعد ذلك بنحو تسع سنوات (١٨٩٠م) ألّف المستشرق الألماني كارل فولرس كتابًا سمّاه (اللهجة العامية الحديثة في مصر) ثم تولى ترجمته في سنة (١٨٩٥م) إلى الإنجليزية (بوركيت) وألحّ على ما ألحّ عليه سابقه سييتا من وصف العربيّة الفصحى بالجمود والصعوبة وتشبيهاها باللاتينية وتشبيه العامية بالإيطالية<sup>٣</sup>. واقتصر هذا الكتاب - مثل سييتا - على دراسة لهجة أهل القاهرة<sup>٤</sup>.

ثم أتى بعده المهندس المبشّر الإنجليزي وليم ولكوكس الذي كان مهندسًا للري فألقى محاضرة ونشرها في مجلة الأزهر التي آلت إليه سنة (١٨٩٣م)، وزعم فيها أنّ الذي أحرّ عامّة المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى، ودعا إلى التأليف بالعامية وقال مخاطبًا الناس في نادي الأزيكية: «أيها المصريون، لن تزالوا قادرين على إيجاد قوة الاختراع لديكم.. فإنه يوجد فيكم أناس كثيرون توفّرت فيهم الشروط، ولكن بسبب عدم وجود لسان علمي مشهور فيما بينكم لم تحصلوا على شيء أضعتم وأعمالكم سدى؛ إذ السبب في ذلك أنّ الكتب العلمية الدنيوية يؤلّفها أربابها مثل الجبال، وفي آخر الأمر لا يلد هذا الكلام الصعب إلا فأرًا صغيرًا وما

١ أباطيل وأسما، لمحمود شاكر ١٦١. وأجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن الميداني ٣٠١.

٢ أباطيل وأسما ١٦٤.

٣ أجنحة المكر الثلاثة ٣٠١، وأباطيل وأسما ١٦٥.

٤ فلسفة الاستشراق، لأحمد سمايلوفتش ٦٧٠.

نشأ ذلك [إلا] من كون اللسان العلمي غير مشهور فيما بين العامة... أقول لكم إذا جنحتم إلى هذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم وتركتم هذه اللغة الضعيفة تمنحون كثيرًا»<sup>١</sup>.

وقال أيضًا: «وما أوقفني هذا الموقف إلا حبي لخدمة الإنسانية، ورغبتني في انتشار المعارف، وما أجده في نفسي من الميل إليكم الدال على ميلكم إلي».

وقد خطا بهذا الاقتراح خطوة عمليّة، فترجم أجزاءً من الإنجيل إلى ما سماه اللّغة المصريّة وتوّه سلامة موسى بعمل ولكوكس وأيده<sup>٢</sup>.

بعد ولكوكس خرج أحد قضاة المحاكم الإنجليزي وهو سلدن ولمور فألف هو الآخر كتابًا سماه (العربية المحليّة في مصر) سنة ١٩٠١م دعا فيه إلى اتخاذ العاميّة لغة أدبية، وهُدّد بأنه إذا لم نفعّل ذلك «فإنّ لغة الحديث العاميّة ولغة الأدب ستنقرضان وستحلّ محلّهما لغة أجنبية نتيجة الاتصال بالأمم الأوربية»، ثم ختم كلامه بأن: «خير الوسائل لتدعيم اللّغة العاميّة هي أن تتخذ الصحف الخطوة الأولى في هذا السبيل، ولكنّها ستكون في عون من أصحاب النفوذ...».

ثم ادّعى أن عالمًا أمريكيًّا في فقه اللّغة يحب الخير للشعب المصريّ وافقه هو وولكوكس على رأيهما في هذه القضية<sup>٣</sup>.

وأخيرًا ظهر سنة (١٩٢٦م) كتاب (المقتضب في عربيّة مصر) لفيلوت وياول اللذين اتجها فيه وجهة علمية لتسهيل دراسة العاميّة المصريّة.. تلك التي ضاعت كرامتها على حدّ قولهما بتركها تنساب مفكّكة من دون ضوابط حتى أصبحت لا وجود لها كلغة مكتوبة ولم يفتهما أيضًا أن يررددا الشكوى من صعوبة اللّغة العربيّة الفصحى، وخاصة حروفها الخالية من حروف الحركة<sup>٤</sup>.

١ المصدر السابق ٦٧٢ - ٦٧٣.

٢ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين ٣٦٠ / ٢ - ٣٦١.

٣ أباطيل وأسمار ١٦٧ - ١٦٨.

٤ فلسفة الاستشراق ٦٧٠، نقلًا عن الدكتورة نفوسة زكريا سعيد في كتابها (الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر).

هؤلاء هم أشهر المستشرقين الذين حملوا لواء الحرب على العربيّة، ويمكن أن نقسم دعوتهم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: الدعوة إلى لهجات مختلفة تكون لغات رسمية لكل بلد عربي.

ثانياً: الدعوة إلى كتابة العربيّة بالأحرف اللاتينية.

ثالثاً: الدعوى بأنّ الفصحى تقضي على قوة العرب الاختراعية.<sup>١</sup>

### المستغربون والدعوة إلى العامية:

ما أجمل أن نبدأ هنا بقول البيروني: «والله لأن أهجى بالعربيّة، أحبُّ إليّ من أن أمدح بالأعجمية».

ليت دعاة العاميّة من العرب المستغربين عندهم من الحماسة والحب للغتهم مثل البيروني، لا أقول أن يتمنّوا الهجوم بالعربيّة ويقدموه على المدح بالأعجمية، ولكن أن يكون عندهم غيرة كغيرته وحبّ كحبّه، ولكنهم يخطبون في جبل المستشرقين ويخطبون وُدّ الغرب الصليبي، أولئك كثيرون في وطننا العربيّ، قد باعوا أنفسهم وعقولهم لهؤلاء الأعداء فأجسامهم بيننا تنهل من خيرات هذه البلاد، وقلوبهم وعقولهم عند أسيادهم تخفق بحبهم، وتفكر: كيف تخدمهم.

من هؤلاء عيسى اسكندر المعلوف الذي كتب مقالات عدّة عن اللهجة العاميّة في مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة! وقد زعم أنّ من الممكن اتخاذ أيّ لهجة عاميّة كالمصرية والشامية، كما زعم أن تعلق المسلمين باللغة العربية لا مسوّغ له. يقول: «وما أحرى أهل بلادنا أن ينشطوا من عقالهم طالبين التحرُّر من رق لغة صعبة المراس قد استنزفت أوقاتهم.. ولي أمل أن أرى الجرائد العربية، قد غيرت لغتها...»<sup>٢</sup>.

١ فلسفة الاستشراق ٦٦٨.

٢ الاتجاهات الوطنية، ٢/٣٦٣.

والذي يأخذ بالألباب، ويحار فيه الإنسان هو أن يكون عدو العربية عضوًا في مجمع اللغة العربية الذي إنما وجد ليكون حصن العربية، ثم يكتب في مجلة المجمع طعنًا وذمًا وتهكُّمًا في العربية! وما هذا الشيء العجيب إلا كمن يحصن بلاده وأرضه ليردّ كيد العدو وغدره، ثم هو يدخله من الباب قائلًا له أهلاً وسهلاً ومرحبًا!

ومنهم عبد العزيز فهمي باشا الذي دعا بقوة إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، وشغل المجمع ببحث اقتراحه، جلسات عدّة، امتدّت خلال ثلاث سنوات، ونشرت في الصحف، ثم ألف كتابًا سمّاه «الحروف اللاتينية لكتابة العربية».

يلقّ الدكتور محمد محمد حسين على دعوة هذين الرجلين قائلًا: «أليس يرضى الاستعمار عن مثل اقتراح المعلوف وفهمي؟ أليس يرضى عنه العضو الإنجليزي (جب) الذي يقرّر في كتابه: «إلى أين يتجه الإسلام؟» عند كلامه عن الوحدة الإسلامية أنّ من أهم مظاهرها الحروف العربية التي تستعمل في سائر العالم الإسلامي، أليس يرضى عنه الاستعمار الفرنسي الذي حارب العربية الفصحى في شمال إفريقيا أعنف الحرب، وضيق عليها أشد التضييق؟»<sup>١</sup>.

ومن الداعين إلى العامية أيضًا سلامة موسى الذي دعا إلى العامية في كتبه ومقالاته، وقد أيد سلامة موسى المستشرق ولكوكس في كتابه «اليوم والغد»: «والهّم الكبير الذي يشغل بال السير ولكوكس بل يقلقه، هو هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها فهو يرغب في أن نهجرها ونعود إلى لغتنا العامية، فنؤلّف فيها ونردّها بها آدابنا وعلومنا»<sup>٢</sup>.

وهناك رجل خطير في أفكاره وآرائه هو أحمد لطفي السيد الذي كان رئيسًا لمجمع اللغة العربية في القاهرة، قد دعا إلى شيء عجيب سمّاه «عقد الصلح بين العامية والفصحى» فالرجل حزّ في نفسه أن يرى قتالًا ضارياً تزهق فيه الأرواح؛ لذلك تبرّع ونصّب نفسه حكمًا وقاضيًا شرعيًا بين العامية والفصحى، وبعد محادثات دخل

١ المصدر السابق ٣٦٤.

٢ أباطيل وأسمار ١٤٧.

فيها الوسطاء من سادة التبشير والاستعمار، عقد هذا الصلح، وانتهت هذه الحرب (وكفى الله المؤمنين القتال)!

وللجامعة الأمريكية في بيروت نصيبٌ في الدعوة إلى العامية فقد نهض أحد أساتذتها يدعو إلى محاربة الفصحى، وهو الدكتور أنيس فريحة الذي ألف في ذلك كتابين هما: «محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها» و«نحو عربية ميسرة»، «ومع أن خلاصة الكتاب الأول موجودة في الكتاب الثاني فإنَّ الدكتور فريحة ينضح في كتابه الثاني بالحق على العربية الفصحى وبالغضب لأهلها، وبالتهكم على تراثها، والهزء برجالها».<sup>٢</sup>

وأخيراً نأتي إلى عميد الأدب الاستشراقي في مصر، أعني الدكتور طه حسين الذي تقدّم باقتراح إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة - وكان رئيساً له - يطلب فيه إضافة أحرف لاتينية على الأبجدية العربية، وقد تصدّى له الدكتور عمر فروخ وعباس محمود العقاد رحمهما الله تعالى، وأخفقت محاولته الخطيرة. يقول الدكتور عمر فروخ: «...وهكذا نجت اللغة العربية من اقتراح ما كان أحد - إلا الله تعالى - يعلم إلى أين تنتهي آثاره لو أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أخذ باقتراح طه حسين».<sup>٣</sup>

## هل حقق المستشرقون وأتباعهم أهدافهم؟

لا ريب بأنَّ الجواب هو: (لا) لأسباب:

الأول - وهو أهمُّها - أن الله تعالى حفظ اللغة العربية، وذلك عندما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والقرآن بلسان عربي ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]، وما دام هذا القرآن العظيم يُتلى في المشارق والمغرب، فإن العربية باقية نامية.

١ المجلة العربية (الرياض)، عدد (١٣٧)، مقال للكاتب.

٢ التبشير والاستعمار، لعمر فروخ وزميله ٢٢٧.

٣ غبار السنين، لعمر فروخ ١٤٩.

وقد أدرك الأمر وليم جيفورد بلجراف في كلمته المشهورة: «متى توارى القرآن، ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة المسيحية التي لم يعده عنها إلا محمداً وكتابه».

وكم حاول الاستعمار الفرنسي الصليبي في الجزائر القضاء على اللغة العربية، ليجعل محلها لغته الخرقاء، ولكن الشعب الجزائري وقف في وجه هذه المؤامرة الصليبية وأفسد خطة المستعمر، وذلك بحفظه لكتاب الله الكريم الذي بقي مجلجلاً مدوياً، تصدح به أفواه الجزائريين، وهكذا خابت آمال الأعداء وانتصرت العربية في النهاية.

الثاني: اللغة العربية لغة حضارة وعلم، وهي قادرة بما فيها من خصائص وميزات واشتقاق أن تسير مع العلم الحديث دون تخلف أو جمود، وها هي جامعة دمشق تدرّس العلوم كلها باللغة العربية منذ أربعين سنة تقريباً، وطلابها من أطباء ومهندسين وغيرهم متفوقون على أقرانهم في الدول العربية بتعريب التعليم الجامعي، ونسأل الله تعالى أن يخرج بقية الدول من قيد التبعية، وأن تخطو مسرعةً إلى التعريب.

الثالث: الهجمة على اللغة العربية أدت إلى ردّ فعل مقاوم لذلك، فقد أنشئت مجامع اللغة العربية في كلٍّ من سورية ومصر والعراق والأردن، وقام أعضاء هذه المجامع بوضع المصطلحات العلمية والطبية لكلِّ وافد وجديد.

الرابع: أدرك المسلمون أن اللغة العربية هي الجبل الثاني الذي يعتصمون به بعد الإسلام، وشيوعُ العامية يعني تمزيق وحدتهم، وحينها لن يفهم العراقي لهجة الجزائري ولا السوري لهجة المصري.. والعرب مهما اختلفوا في سياساتهم، فإنّ العربية تبقى رابطة بينهم، والدليل على هذا أنّ الأمة الإسلامية في عهد المتنبّي تفرقت أيادي سبأ كما يُقال في المثل، فكان المتنبّي الشاعر يطوف على الإمارات المتفرقة، فيمدح هذا، ويذمّ ذاك دون أن يجد صعوبة في التفاهم معهم، وهم متفردون مختلفون..

وأحسن الشاعر حليم دموس حين قال في وصف العربية:

لغةٌ إذا وقعت على أسماعنا      كانت لنا برداً على الأكباد  
ستظلُّ رابطةً تؤلّف بيننا      فهي الرجاء لناطقٍ بالضاد

الخامس: إنَّ القول بأنَّ العربية الفصحى تعيق التقدُّم الحضاري والعلمي -كما يزعم الخزَّاصون- باطل. وحجَّتنا في ذلك أن بعض اللغات الميته والبدائية كاليابانية والصينية والعبرية تدرَّس بها العلوم الطبية والفيزيائية.. ويفتخر أهلها بها، ويحافظون عليها محافظتهم على أنفسهم، ولم يؤدِّ ذلك إلى تأخُّر هؤلاء عن ركب الحضارة وأسبابها.

### قائمة المصادر والمراجع:

- أباطيل وأسما، لمحمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- أجنحة المكر الثلاثة، لعبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق.
- فلسفة الاستشراق، لأحمد سمايلوفتش، دار المعارف، مصر.
- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- التبشير والاستعمار، عمر فروخ وزميله، طبعة بيروت.
- غبار السنين، لعمر فروخ، دار الأندلس، بيروت.